وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب »[1] .

صحيح إن الإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن ، ولكن الإسلام كان موجوداً قبل أن يتم نزول القرآن ، بل إنه وجد بوجود القرآن ، وإلا فما طرفا الصراع ، ذلك الصراع الذى ألجأ الرسول إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، ثم ما كان بينه وبين أهل مكة من حروب بعد الهجرة . . ألم يكن صراعاً بين الإسلام وبين الجاهلية ؟ ونحن هنا ندرك أن الدكتور زكى مبارك حين يتحدث عن ضم فترة البعثة النبوية إلى العصر الجاهلي واحتوائه لها إنما يعنى بذلك التاريخ الأدبى ولا يعنى التاريخ السياسى . ولكننا عند هذا المفترق الكبير وإزاء تلك الثورة الكبرى للاسلام لابد أن ننظر فى أمر العلاقة القائمة بين العصرين سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الأدبية .

فمن ناحية التاريخ السياسى يمكن لنا أن نقول إن القرآن قد بدأ نزوله فى الأيام الأخيرة من الجاهلية ، وأن نزوله كان إعلاناً بنهاية العصر الجاهلى وبداية عهد جديد . وقد مضى الرسول وأسس الدولة الجديدة فى المدينة ، واعتبر المسلمون الهجرة — عن وعى وإدراك — بداية للتاريخ الإسلامى ، فكيف يبدأ التاريخ الإسلامي ولايكون هذا التاريخ تاريخاً للعهد الإسلامي ، ذلك العهد الذى أعلن عنه الرسول منذ نزل القرآن أول مرة . . وإذا كانت الحياة الجاهلية قد استمرت فى مكة فى السنوات الأولى بعد الهجرة ، فقد كان استمراراً منحدراً نحو الضعف والزوال ، وهو ليس استمراراً للحياة الجاهلية بقدر ما هو احتضار لهذه الحياة بالرغم مما صاحب هذا الاحتضار من صراع ومقاومة . وكان من الطبيعى أن تصحب بداية العصر الإسلامى تصفية تدريجية كاملة لبقايا الجاهلية فى كل مكان . ولذلك فان حركة هذه التصفية القوية فى ذاتها دليل على أن عصراً جديداً قد بدأ يعمل عمله ليزلزل أركان

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع ـ الجزء الأول ـ ص ٣٩ ، ٤٤ .